

الأحزان القديمة

بقلم: عمر الحجّار

- عودي أيا قرّة عيني..

أنا علاء الدّين التّعس، في ظهري آثار الشّوك الدامية، نغد الزّيت
من مصباحي، ولا زلت أتعثّر في الظّلام.. ألبس الدّمقس، أشرب
بكوّوس الفضة، أتكئ على حشايّا التّعام، ولكن ماذا يجديني
والصفقة كلّها منذ البداية خاسرة؟

في وسط الصّحراء أخلع عباءتي، قناعي الأخير، ومازلت أناديك
أيا قرّة عيني، لماذا تركتني فجأة؟

قالوا إنك عشقت بائسا حقيرا، شخاذا كان على باب قصري..
عشقت قاطعا للطّرق، وإنك تمضغين الصّبار.. عشقت المغربيّ
العجوز. تعشقين الجميع عداي

ويلي! كأسّي فارغة حتّى من المودّة، والصّمّت كالجيل، وأنت
طيف رائق كالنّجوم، نابض كتردد الأنفاس، كالمدّ والجزر، ويلي
منك!، وأنت بعيدة، ومن سهام التّلح، ومن عيون المغاربة
القاسية.

عندما انتفض المصباح بين أصابعي، كانت صرختك أنت، والملح
في جوف المغارة يكون أشكالا غامضة تحمل نذير الوعد
والمكتوب، وأنا أحكّ جدار المصباح المعدنيّ الصديّ بجنون
المحرومين.. حدّرتني.. أدرك ذلك.. ضحكت لحظتها.. يا بلهاء.
من ذا يرفض قصر السلطان يرفض تاجه وصولحانه مهما كان
الثلث؟! لم أكن مخطئا لهذه الدرّجة الرّهيبة .. ما يدريني
أنّ العفن يرقد خلف كلّ شيء... وأنّ الأشياء البرّاقة دائما زائفة؟
ما يدريني أنّ اللّعبة لا تخصّني، وأنّني تعس كزهر الصّبار؟!
بالأمس حاول الخدم سرقة عقود الياقوت والزّبرجد، وانتهبوا فرصة
نومي، وأنا أحلم بك حلما قلقا، عندما علمت صمّت آذانهم ..
كنت أخفي خلف خوفهم خوفا.. وخلف بكائهم بكائي،
وأمي العجوز تصرخ خلف التّوافذ أحضرت لها أعظم أطباء
بغداد. كانت تغافل الجميع، وتبتلع قطع الدّهب وفصوص الماس.
حاولت إفهامها أنّ كلّ شيء ملكنا، حقّنا المشروع.
- فلنحاول قليلا يا أمّي أن ننسى ذكرياتنا المرّة!
لكنّها ظلّت تغافل الجميع حتّى امتلأت معدتها..
وكان زيت المصباح يتناقص.. أيّامي التي مضت.. أيّامي القادمة،
لحظاتي التي بعثها بثمان بنجس، أيا قرّة عيني، ألم تكوني مخطئة

عندما ذهبت بعيدا إلى هذا الحدّ؟...

كنت في حاجة ملحة لكلمة منك .. تقولين عد، تقولين أطفئ
ذبابه المصباح، انزع الأتعة عن وجوه المغاربة، دع المغارات
للخفافيش وعشاق الظلمة... لكنك ضننت عليّ بالكلمة
الأخيرة.

- يا مولاي .. بحثت عنها في كلّ مكان...

- هل أصابك العجز؟...

- فتّشت كلّ القبور

- هل أصابك العجز؟

- لكنّها يا مولاي.. يبدو أنّها تكرهك إلى حدّ كبير .. هناك

أسوار لا أتخطّها

- أيّها الجنّ الخائن

على القبر وضعت قبضة التراب الأولى .. وضعت قبضة التراب

الأخيرة..

تذكّرت كم عاشت مسكينة وماتت مسكينة .. كانت تأخذني

في أحضانها، تنزع بدفئها برودة الغابات الليلية من عظامي.

أحسست بالأشواك الدامية في ظهري رغم الفراش الحريري...

فقدت كلّ شيء.. أحسست بالعري والجوع..

خسرت كلّ شيء... أيّ شيء بقي ولم نبعه بعد؟...
على الصّخرة البعيدة في المكان نفسه.. كان المغربيّ العجوز
جالسا يحدّق فيّ وأنا أخوض أحراش العظام النّخرة.

- أيّها المغربيّ الحكيم، ماذا لو ألغينا الصّفقة؟

- لا أريد بيعه أبدا...

- صفقة خاسرة.. روعي زائفة.. ضحك بصوت هادر واختفى

.. وماذا كسبت أنا؟

مازلت وحدي في المسالك المجهولة. تركت القصور والعبيد

والمصباح، لكنني لم أبتعد كثيرا.. تحيط بي قبضة التراب الصّلبة،

تراقبني الوجوه المنهكة، تحدّق بيأس أحيانا، بشماتة أحيانا

أخرى.. عشرات الوجوه التي أعرفها.. أهل وأصدقاء وخلائن،

كلّهم معلّقون فوق قمم الأشجار.. يموتون ببطء مرّ.. قالوا:

- خدعنا المغاربة.. أعطونا المصاييح وسلبونا كلّ شيء...

حاولت الهرب... أن أتفادي قدرتي الزّائف... وعيون المغاربة

تترصدني من خلف التّلال.. وأنت يا قرّة عيني تركتني آخذ

بشارات خلاصي، تركتني أقضي ديني الفادح وحدي.. أهتف

باسمك، ولا أجد سوى الصّدى والموت.